الأدب القومى

عرفت بباريس فى ربيع سنة ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت هى وأمها بالنزل الذى كنت به وأقامت فيه أسبوعين ، ثم غادرته هى وأمها إلى ألمانيا فى واحدة من تلك الرحلات التى يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة . وكنا أهل النزل جميعاً نقضى ما بعد العشاء فى صالون بغرفة المائدة ، نتحدث أوتعزف صاحبة النزل لنا بعض قطع البيانو أن كانت تجيد هذا العزف إلى حد البراعة فيه . وقد وثقت هذه السويعات بينى وبين الفتاة الكندية أن كنت أقدر الحاضرين على التحدث إليها بالإنجليزية لأنها لا تجيد الفرنسية . وكنت يومئذ أكتب « زينب » ، وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار أوهام طويلة عريضة . وعرفت مس شلزك كاسلز ذلك من أمرى ، وعرفت مما كان يرد إلىّ من صحف مصر أنى أكتب فى بعضها . فلما كانت الليلة التى اعتزمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى ، فقالت :

– كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سير والترسكوت بتاريخ إنجلترا . إننى وإن لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئاً كثيراً جميلاً ، وأن تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنهما وتقريبهما للناس فى الصور القصصية المحببة إلى النفس ، ولعلك إن فعلت تجعل إهداء أولى هذه الروايات التاريخية لى .

ولم أفعل ، ولم أقم بأكثر من محاولة لم تتم يتبينها القارئ فى الفصول

الأخيرة من هذا الكتاب . لكنى أشعر من يومئذ كما كنت أشعر من قبل ذلك بأن حياة الأدب إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه ، وإن لم يظهر وحيها فى آثار حياته ، كان الأدب فاتراً ضعيفاً ؛ لأنه لا يصف الواقع ولا يجلو الحقيقة . وخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب فى أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته . وليس ذلك بمستطاع على أكمل وجوهه إلا حينما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التى أنبتتنا والوراثة الكامنة فينا ، فنصل بذلك حاضرنا بماضينا ، ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا ووطننا وكل ما توحيه هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحى .

وعدت من باريس إلى مصر فى سنة ١٩١١ بعد ستة وعشرين شهراً أقمتها بها وجست أثناءها خلال أوربا . وعدت عن طريق سويسرا وإيطاليا ، وركبت البحر من برندزى إلى بورسعيد ، وكانت هذه أول مرة رأيت ذلك المرفأ المصرى . وما أزال حتى اليوم أذكر ما أثارته موازنتى بينه وبين مدن أوربا من رغبة عنه وحرص على مغادرته . فلما ركبت القطار إلى قريتنا ونزلت منه فى محطتها وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا ، وسرت على هذه الطرق وبين هذه المزارع التى شهدت طفولتى واستمتع بها صباى ، نسيت أوربا وريفها وأهلها وكل ما فيها ، وشعرت بقلبى يتفتح ونفسى تنتشر فى أرجائها السعادة ، ووجودى يكاد يطفر من فرط الطرب ، وأحسست كأنى عدت أختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الأشجار ، وبكل قطرة من هذا الماء المتقلب فى الترعة ، وبكل ذرة من هذا الهواء ، هواء قريتنا الصغيرة الجميلة . فلما انتهيت إلى بيتى وأهلى لم أستطع أن أحبس إحساسى فتركته يطفر فرحاً سعيداً ، وشعرت بما فى ذلك كله من وحى صادق لمن أراد الكتابة عنه .

وفى سنة ١٩٣٢ ، أى بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وكنت أتنقل فى ربوع الشام ، إذ مررت بمعرة النعمان ولم أقف عندها . مع ذلك تمثل لى فى تلك الساعة هذا الشيخ أبو العلاء وارتسم أمامى تمثاله وفصلت أمام بصيرتى آدابه وحكمته وفلسفته ، وألفيت قطعة من شبابى ترتسم أمامى بقوة ووضوح ، وشعرت كأن هذا البلد الذى لم أر من قبل قط يحتوى شيئاً من حياتى . إذ ذاك سألت نفسى : إذا كان هذا شأنى ولم أدرس أبا العلاء دراسة بحث ممحص ولم أقرأ عنه قراءة متصلة غير كتاب صديق الدكتور طه حسين « ذكرى أبى العلاء » ، فماذا تكون الحال بالقياس إلى من يدرسون تاريخ أسلافنا جميعاً فى سائر البلاد التى تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم ؟ أولا يكون ذلك مصدر إلهام لهم أصدق الإلهام ، ووحى فى التاريخ والأدب أسمى ما يكون الوحى ؟ ! والإلهام يكون ولا ريب أسنى كلما كان أوثق اتصالا بوطن الإنسان وقومه . والأدب الذى يصدر عن الإلهام يكون لذلك أروع وأقوى إذ يكون أدباً قومياً صادقاً .

وكما يسمو وحى الوطن بالكاتب فى الأدب القومى ، فإن هذا الأدب يخلع على الوطن فى نفوس أهله جميعاً جلالا وبهاء يزيدانهم له حباً وبه إيماناً وتقديساً وإياه إعزازاً . ولقد كان للأدب القومى وللفن القومى فى كل الأمم أعمق الأثر من هذه الناحية . وضعف أدب مصر وفنها القومى له الأثر المقابل لذلك من هذه الناحية أيضاً .

ولأدلك على ذلك أذكر أننى زرت روما غير مرة . وكنت ككل مقيم بروما أو زائر لها أتخطى « نهر التبر » مرات . وفيما أنا أتخطاه يوماً ذكرت أبياتاً من الشعر الإنكليزى حفظناها حين كنا بالمدارس الثانوية ، فيها قصة لبطل لم يحضرنى اسمه كما لم يحضرنى اسم الشاعر صاحب القصيدة .

ولست أذكر أكان هذا البطل قد أحيط به فاضطر إلى أن يلقى بنفسه فى النهر ؟ أم كان أراد مهاجمة خصوم لروما فى الجانب الثانى من « التبر » فرمى فيه بنفسه ليعبره سابحاً . ولم يعنى من أمر القصة كلها شىء ، ولم أجهد ذاكرتى لاستظهار شىء منها . وإنما عنتنى الأبيات التى قالها البطل ساعة ألقى بنفسه فى الماء ، وعنتنى فيها نغمة المتعبد المقدس إذ يقول :

« أيها التبر ، يا أبانا التبر ومن يسبح الرومان بحمده ، إليك حياة رومانى وعدة حربه خذهما اليوم فى رعايتك » . ذكرت هذه الأبيات وألقيت على النهر نظرة طويلة ، وجاهدت كى أجد فيه ما يبعث لنفسى مثل القداسة التى كانت وما تزال تلك الأبيات التى حفظت صغيراً مبعثها عندى . وأعترف أنى لم أصل من جهادى إلى شىء ؛ لأنى لم أحاول إجهاد ذاكرتى لأستظهر ما عرفت من تاريخ الرومان ، ولأجد فيه هذه القداسة التى أشاد البطل الرومانى بها على لسان الشاعر الإنكليزى . لكنى مع ذلك ما أزال أرى فى هذه الأبيات نفسها قداسة تجذبنى إلى ناحية التبر ، وتدعونى إلى أن أستشف من مجراه ومن تاريخه ما أوحى للمئين من الشعراء والكتاب القصائد والصحف الخالدة .

وليس نهر « السين » فى اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر فى اختراقه روما . لكنى إذ أقرأ ما يكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه أشعر فى أعماق نفسى بما يجعلنى أشارك هؤلاء الشعراء فى محبة نهر باريس وإجلاله . ذلك أنى عشت إلى جوانب السين سنوات ، وعرفت من مجراه وتاريخه ، وكان لى فوق لجته ما يجعل له فى حياتى أثراً يدعونى إلى الاشتراك فى شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه ، وإلى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرؤه عنه من شعر ونثر ، وبكل ما تقع عليه عينى من صور لأماكن فيه ، وبخاصة إذا كنت قد قرأت عنها شيئاً يجعلها فى حكم ما عرفته بنفسى .

وشهدت فى سويسرا جمالا وروعة جعلانى أقرأ ما كتب عنهما لأزداد لهما تذوقاً وبهما سرورا . وأشهد لقد كنت ، كلما تزايد ما قرأت ، أشد لجمال سويسرا وروعتها حباً . وليس فى شىء من هذا كله أى عجب ؛ فكلنا أكثر بالجمال فى مختلف صوره استمتاعاً كلما كان معنا رفيق يشاركنا فى المتاع . والمتاع يزداد كلما كان الشريك أكثر للجمال قدراً وبدقائقه معرفة . فأنت فى صحبة شاعر أكثر استجلاء لما فى منظر من مناظر الطبيعة أو فى حادث من الحوادث من شعر . وأنت فى صحبة موسيقار ترى بعينيك أنغاماً يثيرها فى الجو جمال الصور . وأنت فى صحبة مصور تحس بما فى الشعر وما فى الأنغام من صور رائعة واضحة الحدود . ما بالك إذا كان ما تقرؤه فى قصيدة من القصائد أو كتاب من الكتب عن نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع فيه الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقى فيه الفنون الجميلة كلها ! أنت إذن تود لو تعود إلى هذه المناظر . وأنت إذا عدت إليه واجد ولا ريب فيه حديثاً أشهى وأعذب من حديثه إليك قبل أن تقرأ عنه ما قرأت ، وقبل أن تسمع من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت .

وعدت إلى مصر من روما فى العشرة الأخيرة من أغسطس سنة ١٩٢٩ وأتيح لى يومئذ أن أشهد فيها منظراً لم يتح لى المتاع به منذ سنوات ، ذلك منظر النيل فى فيضانه . وأتيح لى أن أشهد هذا المنظر فى أروع صوره وأكثرها مهابة وجلالا . فلم يبلغ فيضان النيل من العظمة والرهبة منذ عشرات من السنين ما بلغه ذلك العام . وما كادت عينى تقع على النهر حتى تحركت فى نفسى كل عواطف الإكبار والتقديس ، وحتى ذكرت من مناظر النهر التى شهدتها بالأقصر وأسوان والسودان ما زادنى بجماله وجلاله وروعته شعوراً ، وما وصل بهذا الشعور بين نفسى ونفوس أجدادنا الفراعنة الأقدمين

الذين كانوا يرون فى « البحر الأعظم » معبودهم الذى أتاح لهم الحياة وأمتعهم معها بكل ما فيها من خير وبركة . ولذلك جعلت كلما سنحت لى الفرصة أذهب إلى شواطئه أملأ ناظرى وقلبى وجوانحى إعجاباً به وتقديساً له ودعاء أن يكتفى من فيضانه بما يغمر البلاد من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون هى وأهلها من المغرقين .

وأفضيت يوماً بخوالج نفسى إلى صديق من الذين زاروا أوربا وتنقلوا فى مختلف نواحيها وتذوقوا جمالها فى تباين صوره واختلاف أوضاعه ، وذكرت له عميق شعورى بجلال النيل مما لم أشعر به حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعته أثناء بدائع سويسرا فوق موج بحيراتها الهادئ وبين شوامخ جبالها الساحرة السفوح والقمم المغطاة بالنبات والشجر والثلج غطاء يزيد فى روعة جلالها بما يجعلها دائمة التغير والتموج كلما تغير الجو وتموجت السحب . وتبسم صاحبى ضاحكاً من قولى معتقداً أنى أمزح ، ثم كرر هذه الأنشودة التى نسمعها دائماً وقد نكررها أحياناً : وماذا فى مصر من جمال ؟ وماذا لطبيعتها من روعة وهى ليست إلا مسطوحاً من الأرض يُملك تشابهه الذى لا يعبس ولا يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكاً ؟ . وكيف تقرن هذا الوادى المحصور بين الصحارى الجدباء المحرقة إلى سويسرا جنة الله على الأرض ، أو إلى إيطاليا مهد الفن والجمال ، أو إلى أى بلد يكفيه دلالة على جماله أن ألهم الشعراء والكتاب ورجال الفن ، فى حين لم تلهم مصر أحداً ؛ إذ ليس فى تشابهها ما يلهم شعراً أو يقيم فنًّا !

ليس صاحبى هو وحده ، مع شىء كثير من الأسف ، الذى يفكر هذا التفكير أو ينظر إلى بلاده تلك النظرة الخاطئة المملوءة غروراً وعقوقاً . بل إن الأكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون بإعجابهم بما رأوا وما لم يروا

من بدائع الجمال فى أوربا زهوهم بما تبعثه مناظر بلادهم إلى نفوسهم من ملال . ثم إن كثيرين ممن لم تتح لهم أسفارهم وقراءاتهم المفاخرة بهذا الزهو ليحدثونك فى أبلغ الإعجاب بجمال صحراء العرب وما أنجبت هذه الصحراء من حب وحماسة وكرم تجلى فى الشعر العربى القديم ، وليزهون بهذا زهوهم بإملال بلادهم إياهم . وهؤلاء وأولئك هم الطائفة التى تسمى جماعة المتعلمين فى مصر . وقد يكون لهؤلاء وأولئك من العذر أنهم ليسوا شعراء ولا كتاباً ولا رجال فن . وأنه لم يحرك أحد فى نفوسهم صور الجمال الظاهرة والكمينة فى نهرهم ووادیهم وفى صحارى بلادهم وواحاتهم المنقطعة النظير فى بهر روعتها وسحر جمالها وقداسة جلالها . لكن العجب من أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها . هؤلاء كذلك يشعر أكثرهم إزاء ما فى بلادهم من جمال مثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين فى مصر . فقلَّ منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال إلى حد يهز شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازاً يخرج من نفسه صيحات صادقة كلها تأليه هذا الجمال وعبادته وتقديسه ، ويستثير من أوتار شاعريتهم أو حيالهم هذه الأناشيد التى تدفع بالفارس إلى أن يلقى بنفسه فى غمار التبر متغنياً : « أيها التبر ، يا أبانا التبر ، يا من يسبح الرومان بحمده ، إليك حياة رومانى وعدة حربه خذهما اليوم فى رعايتك » . بل إن أحدهم ليحس أحياناً بأن من الواجب عليه أن يتحدث عن بلاده وعن تاريخها وعن جمالها ، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يخلبك ، ولكنك تجده خلواً من الشعور الصادق والإحساس العميق . وكل شعر وكل أدب وكل فن ليس صادراً عن شعور صادق وإحساس عميق لا حياة فيه ولا بقاء له .

وسر هذا الجمود فى تقدير جمال بلادنا ضعف الإيمان فى نفوس

شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوى الفن فينا بالجمال . وسبب ذلك أنهم يستمدون شعورهم بالجمال من الكتب لا من الحياة . فالجميل هو ما تغنّى به غيرهم على أنه جميل . أما مالم يقفوا على أن غيرهم تغنى به فلا يمكن أن يكون جميلا . وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين أجدادنا الذين كانوا يحبون جمال بلادهم ويقيمون لهذا الجمال أعياده ويقدمون له فيها قرابينه ، وما دامت الكتب التى فيها تلك الأغانى قد أصبحت فى غير متناول الأكثرين منا وأصبحت قراءتها لا تلذ ، فبحسبنا أن نقرأ ما تعودنا قراءته تلاميذاً عن جمال صحراء العرب ، وأن ننتقل بعد ذلك لقراءة ما تعودنا قراءته طلاباً عن جمال أوربا وروعة تاريخها . فأما ما بين ذلك فليس أمره ميسوراً ، وليست قراءته مستحبة . ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة . وإذن فمصر لا جمال فيها ، وهى بلاد مسطوحة متشابهة كل ما فيها مملول وليس فيها ما يشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والأدب .

ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب عن سر بقائهم على التقليد وحبسهم نفوسهم على ما سبقهم إليه غيرهم ، رأيتهم يجيبونك بأن لا جديد تحت الشمس ، وكل ما تحت الشمس قد دوّن وحوته المكاتب ، وأنهم لهذا يكفيهم أن يقلدوا سابقيهم وأن ينقلوا عن معاصريهم من أهل البلاد الأخرى . هم فى ذلك متورطون فى أفحش الخطأ . وأى خطأ أفحش من إيمانهم بأن لا جديد تحت الشمس ؟ ! بلى ! إن كل ما تحت الشمس جديد لأنه دائم التجدد . والشمس نفسها تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه . وكل إنسان منا جديد ، وهو كل يوم متجدد . وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجاً ازداد بهذا الامتزاج حياة وازدادت بذلك تجدداً . وإذا كان حسناً وواجباً أن يمتزج الإنسان بالماضى وأن يجد هذا الماضى طى الكتب ، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر فى كل مظاهر هذا الحاضر ، ليجمع

بين الماضى والحاضر كاملين ، وليجدد بذلك للمستقبل صوراً أقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضى وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة إذا كان هذا الماضى ماضى بلادك ، وكان هذا الحاضر حاضر بلادك ، بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال . فإذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك لتتمثل ما فيها من جمال وتجليه على غيرك ، أو استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الإنسانية كلها وترنمت عن إيمان صادق بأناشيد الخلد فى وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الإلهام . لكنك على كل حال لن تجد فى قصرك نفسك على الكتب إلهاماً صحيحاً ولا وحياً صادقاً . إنما الإلهام الصحيح والوحى الصادق فى اختلاطك بالحياة وامتزاجك بمظاهرها واجتلائك ما فيها من جمال هو الأساس الأول لكل إيمان صحيح .

وكيف لإنسان بالغة ما بلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل إليه عن طريق حسه هو ، وإنما وصل إليه من طريق حس غيره ! كيف له أن يعبر عن جمال لم يجتله ولم يحسه ، وإنما هو يذكره لأن غيره ذكره ، ويحس به لأن غيره أحس به . إن العواطف لتختلف مظاهرها ، وإن اتفقت فى النفس مصادرها ، باختلاف الوسط الذى تبدو فيه . وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة غير التى تتجلى بها عند أهل الشمال . ولذلك تختلف أناشيد الحب من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر . ما بالك بالصور التى يقع عليها الحس ويتأثر بها فى صور تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم ؛ لأن الأشخاص يختلفون فى قوة كل حاسة من حواسهم وحس من إحساسهم وعاطفة من عواطفهم .

كنت أتصفح يوماً مجموعة من الشعر الفرنسى نشرتها مجلة الحوليات

Les Annales فى ملحق لها وجعلت عنوانها « إلى جانب المـــدفأ Au coin du Feu » وقدمت لها بمقدمة صغيرة أشارت فيها إلى ما يثيره المدفأ فى نفوس أكثر الشعراء بل فى نفوسهم كلهم من الخواطر وما يجيش فيها من العواطف . وفى هذه المجموعة كثير من الغراميات الرقيقة يذكر فيها الشاعر كيف جاءت إليه صاحبته فى هدأة الغرفة التى يقيم فيها ، أو كيف ذهب هو إليها فى غرفتها ، وكيف جلسا على مقربة من النار يصطليان فى حين تهطل الثلوج وتكسو الطبيعة المحيطة بهما بثوبها الناصع البياض ، وكيف تبادلا حلو الغرام وتناجيا بأغاريده ، وكيف تاهت عليه صاحبته ودلت ، ثم زادت تيهاً ودلا ، على حين زاد هو استعطافاً وضراعة . وكيف جثا عند قدميها راجياً آملا ، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها جيشاً من الأحلام والمنى العذبة اللاذعة ، أو كيف جعلا يقرآن ويتحدثان ، ثم إذا القراءة وإذا الحديث يقربان بين قلبيهما حتى يمزجاهما مزجا ، وما إلى ذلك من صور حلوة يزيدها حلاوة أنها تعبر عن إحساس صادق وشعور فياض ، وهى مع ذلك وفى تعبيرها القوى هذا بسيطة كل البساطة فى نفسها وفى روايتها ، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا إغراب .

وذكرت حين قراءتى فى هذه المجموعة من الشعر الفرنسى التى ألهمها جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر فى الفن وفى الأدب عند أهل أمم الشمال كافة . وليس أحد يعرف الأدب الإنجليزى شعراً ونثراً إلا يذكر جوار المدفأ The fireside وما ألهم الكتاب والشعراء . بل إن لجوار المدفأ لأثراً عميقاً فى حياة هذه الأمم الشمالية كلها ، وهو لا شك له مثل هذا الأثر فى الأمم الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط فى الشمال ، وحيث يضطر الناس للاحتماء بالجدران ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل أهل الشمال سواء . وأنت إذ تقرأ شيئاً عن حياة أهل هذه البلاد ترى هذا الأثر

واضحاً ظاهراً فى عيشهم وفى توزيع ثروتهم وفى ألوان طعامهم ولباسهم وفى صور سرورهم وملذاتهم . فإلى جوار المدفأ تجلس الجدة العجوز تقص على حفدتها قصص الماضى وخرافاته وأساطيره . وإلى جوار المدفأ تجلس الأسرة تتناول طعامها فى النهار وفى الليل . وإلى جوار المدفأ يجلس الرجال يقرءون والنساء يطرزن والأطفال من حول أمهاتهم وآبائهم فى شغل بلعبهم وما أعد لتسليتهم . وبجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده ويكتب الكاتب رواياته ، ويذهب القصاص والحكيم والفيلسوف كل فى خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره . فلا عجب ، وذلك أثر المدفأ فى حياة تلك الأمم ، أن يكون المدفأ وما يلمع فيه من بصيص النيران وما يرسل من ضياء لا يضىء ، لا عجب أن يكون مصدر وحى وإلهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف ، وأن يكون بعيد الأثر فى الفن والتفكير عند الذين يقضون حظًّا عظيماً من وقتهم فى جواره .

وليس جوار المدفأ إلا بعض مظاهر الحياة التى تلهم الشعراء شعرهم فى بلاد الشمال . لكن الثلوج وقرّ الشتاء وبداءة الربيع وتفتح الأزهار وكل ما فى الطبيعة المحيطة بهم يلهمهم أيضاً ، وهو يلهمهم بذاته عن طريق اتصالهم به . وليس إلهامه إياهم مقصوراً على ما يقرءون عنه فى الكتب التى سبقهم بها غيرهم . بل ها نحن أولاء تحيط بنا طبيعة ساحرة ، ومع ذلك لا يظهر لها فى شعر شعرائنا ولا فى كتابة أدبائنا من الأثر إلا قليل . ولذلك تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد ؛ لأن الذين ألقت الطبيعة عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها ، بل نرى شعراءنا وكتابنا وذوى الفن منا لا يتصلون كما قدمنا ، بالحياة إلا عن طريق غيرهم ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه . وهم فى هذا ينسون أنهم القيثارة التى تنقل إلى آذان البشر أنغام الجمال ماثلة فى مختلف مظاهر

الطبيعة ، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام سبقهم غيرهم إليها وبذهم فيها ، وقضى على كل أمل فى أن تكون لهم شخصية قائمة بذاتها حين يشدون هم بها ويحاولون تجديدها . وهم لا يكادون يجدون شيئاً لم يسبقوا به فيما قيل من شعر ونثر فى وصف مصر والتغنى بسحر جمالها ؛ فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئاً من أمرها . فإن هم ذكروا منه شيئاً لم يزد على بريق حسن بدا لهم ، فلم يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به ، واكتفوا بأن سجلوه فى فراره ، كأنما ليس له فى حياة مصر قرار . ولو أن ربة الشعر والفن والكتابة كانت تلهمهم لآمنوا بأن الفن ليس هو إثبات هذا البرق الفرّار ، وإنما هو الوقوف عند الجمال والإعجاب به وأخذه إلى مجامع النفس فى مختلف صوره ، والعود إليه مرة ثم مرة ثم مرة ، والوصول بالنفس إلى حدود الفناء فيه حتى تمتلئ به وتجمع إليه ما تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه ، فإذا الجمال يفيض عن ذى الفن ، وإذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو القصة أو اللوحة أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذى تمثلته نفس إنسانية ممتازة روحاً إنسانية تخالط النفوس كلها ، فتشعر فى أعماقها بمثل ما شعر به رجل الفن ، ويحس فى الأشياء بجمال ما كان لها أن تحس به لو لم يكشف هذا الرجل عنه ولو لم يخلقه فى الحياة خلقاً يجعل للإنسان على الأرض من المجد مثل مجد الله فى العلى .

ولنعد إلى النيل ، إلى هذا « البحر الأعظم » الذى كان أنشودة العالم منذ القديم ، إلى النهر الذى تأله على الدهر وجل فى كل العصور وتقدس عند كل الأديان . ألم يكن رباً من أرباب الفراعنة يرمزون له بإبيس إله الخير والبركة ؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة ، وأنه فيها ينبع من أنهار العسل ؟ ما أشك لحظة فى أن الشاعر أو الكاتب أو المصور يجد فى هذا النهر إذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدمه إجلاله وحبه ، وحياً لا ينضب

وإلهاماً يكفيه مدى حياته ، بل يكفى شعراء وكتاباً وأرباب فن على تعاقب الأجيال جميعاً . إن فى تبدل مياهه وتغير مجراه فى كل فصل من فصول السنة ، وفى ارتفاعه بالفيضان جباراً رحيماً ، يغرق ويسقى ويطغى ويخصب ، وفى خضوعه للسابحات من الفلك فوق ظهره تجرى بالتجارة حيناً وبالمسرة واللهو حيناً ، وفى هؤلاء الذين يتغنون فى سكينة مطمئنة حين هو يحملهم فى أناة ومن غير عجلة إلى حيث يريدون ، وفى تعاريجه وشلالاته وسدوده ، وفى انبعاثه من هناك ، هناك عند خط الاستواء ماراً بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو إلى مصبه ، وفى شواطئه المخصبة بطميه الدائمة الشكر للنعمة ، وفى شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعاً وقنوات والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذى يمد بالحياة كل ما حوله ، وفى ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائمى التجدد والجمال — فى هذا كله من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد والكتب والصور ، ومالا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها إلى يوم أزلها إلا بعضه ؛ لأن مصر وتاريخها ليساً إلا بعض هدايا النيل وأعطياته .

وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر الإله كل ما ملأ به نفسى من تقديس وإجلال فى كل مرة صحبته فيها ، ولن أنسى منظره الذى أشرت إليه حين عج بفيضانه فى صيف سنة ١٩٢٩ وحين أخذنى إليه أخذاً إثر عودتى من أوربا بعد مشاهدتى التيمس والسين والتبر فى مختلف عواصمها فى الساعات الثلاث التى قضيت ما بين الإسكندرية والقاهرة وبعد أن تخطينا النهر عند كفر الزيات وامتلأت نفسى بروعة جلاله . يومئذ تحرك فى نفسى الفلاح القديم الذى ورث من آبائه وأجداده حب هذا الثرى المقدس ، وإجلال هذا النهر المبارك ، والإعجاب إلى غاية حدود الإعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملأى بحياة كلها البهجة والنضرة . نعم ! تحرك الفلاح

فى نفسى ، فصرت لا أبصر إلا بعينه ، ولا أسمع إلا بأذنه ، ولا أحس إلا بقلبه ، ولا أشعر إلا بشعوره ، فكنت خلال هذه الساعات الثلاث مأخوذاً بمناظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر أكثر مما يأخذنى أى مظهر من مظاهر الجمال . وكان تقديسى على أشده لمشهد مياه النيل فى فيضانه تتقلب أمواجها الحمراء بعضها فوق بعض فى الترع وفى النهر العظيم . يا لها ذات جمال لا يعدله جمال ، وروعة تسجد أمام جلالها كل روعة ! إنى لأشعر أن هذا الماء المملوء حياة وخصباً يجرى فى حنايا نفسى ويجرى فى عروقى مع دمى أكثر مما يجرى فى النهر وفى الترع المتفرعة منه . وإنى ما أزال لذلك أراه أمام نظرى وأنا أكتب فى غرفتى أمام كتبى . نعم ! ها هو ذا يموج حلواً جذاباً بلونه الطامى وموجه المتدافع فى طمأنينة بين حروف الترع المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والأشجار ، وتنفسح من ورائها المزارع الخضراء المترامية إلى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن ، وتقوم فوقها هنا وهناك المنازل الترابية اللون ، تأوى إليها اليد العاملة التى تنبت من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التى يجود الله بها على أهل مصر . وها هو ذا يموج فى عظمة وجلال وقوة تدافع فى مجرى النهر الذى اتخذ منه أجدادنا الفراعنة إلهاً يعبدونه ، والذى جعل من مصر جنة فيحاء بدل أن يذرها تندمج فيما يحيط بها من صحراوات جرداء . أين أنت يا أنهار أوربا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات الميمون الروحات ! ومع ذلك يقدس سكان روما التبر وسكان باريس السين وسكان برلين الأسبرى وسكان لندرة التيمس ! ما أكبر ما لأجدادنا من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنة النعيم منابعك الإلهية !

أى منظر من مناظر بحيرة ليمان وسحرها البديع يعدل منظر نهرنا فى سحره وبهره ! ! وأى جبال فى سويسرا أو غير سويسرا تعدل هذه المستويات

الذاهبة إلى الأفق تكسوها زروع مصر وأشجارها ، وكلها النماء والقوة والحياة المتدافعة !! أنظر إلى مزرعة الذرة ما تزال فى أول صباها زاهية خضرة أوراقها غضة سيقانها ، تلتف حولها عُقَلها كأنها قصبات الناى ، يثير منظرها فى أذنك ألحاناً لا تدرى أهى عيدان الذرة ترتلها أم هى أصوات الموسيقى المصرية الحنون تموج على أوتار فؤادك لتكمل فى نفسك جمال هذا المنظر المصرى الفذ الجمال . ثم أنظر إلى أشجار القطن مناط آمال أهلنا الذين تراهم سمر الوجوه سود العيون حادى النظرات ، تلمع عيونهم ذكاء ، وتحدث نظراتهم عما جبلوا عليه من جد ومثابرة . وسط هذا الوطن الذى نشأت فيه والذى نسيت معه كل ما رأيت مما سواه ، ذكرت أننى أستطيع أن أجوب أقطار الأرض ما شئت ، وأشهد من صور الجمال فى مختلف مظاهر الفن ما حلا لى أن أشهد ، وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلذ ويطرب ، وأن أقرأ من أدب العرب وأدب الإفرنج كل ما يتسع وقتى لقراءته – أستطيع أن أصنع هذا وأكثر منه من مثله ، ثم أبقى بعد ذلك وفوق ذلك مصرياً وأبقى أكثر من مصرى ؛ أبقى فلاحاً قحاً صميماً ، أقدس كل ما فى مصر ومزارعها من جمال ، وأقدس النيل الذى حبا مصر الحياة وحباها الجمال .

لو أن رهطاً من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودونوا وحيه ، لرأيت صاحبى الذى هز كتفيه حين ذكرت له إعجابى بالنيل وجماله ، أشد بنيل بلاده إعجاباً منه بجمال سويسرا أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم . نعم ! فالفن يسكب الجمال حتى فى النفوس الجامدة أمام الجمال . وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس إلى العمل للمزيد من هذا الجمال . ذلك بأنه يحبب إليهم الحياة ويدعوهم إلى زيادة تجميلها وإلى معاونة الطبيعة لاستظهار زينتها وبهجتها . وما أشك فى أن سويسرا

مدينة بكثير من رواء جمالها لعمل الإنسان بعد أن دله الفن وأربابه على مبلغ ما جملت الطبيعة به تلك البلاد . ولو أن الفن كشف للمصريين عن جمال بلادهم لعملوا كل ما فى وسعهم لزيادة جمالها جلالاً وروعة ، ولرأينا هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة فى جلال سهولته وقد رأوه باهراً بارعاً من خلال ما عمل الإنسان لاستظهاره فآمنوا به إيمانهم بجمال سويسرا ، ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر ، بل كان تقديسهم وإيمانهم أقوى وأعمق ؛ لأنه تقديس جمال متصل بنفوسهم مجرى الدم فى عروقهم .

وليست طبيعة مصر وليس نيلها ووادياها هى وحدها ذات السحر والفتنة ، بل إن تاريخها القديم والحديث ليحتوى من ذلك أكثر مما يحتوى أى تاريخ غيره ، كما سنبين فى الفصل التالى . وهذا التاريخ وذاك الوادى ونهره كلها جديرة بأن تكون مصدر الوحى لأدب قومى يصور مصر فى ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع فى نفوس أبنائها وفى نفوس الأجانب عنها ممن يقرءون هذا ، فيعرفون مصر كما هى حقاً ، لا مصر التى شوهت تشويها بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية . ويومئذ تنتقل النفس المصرية خطوة واسعة فى سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها ، وتنتقل كذلك خطوة واسعة فى سبيل تمثل الجمال والخير والحق ، وتسمو بذلك إلى المكان الإنسانى الصحيح الذى ألقى على عاتق الأدب فى مختلف العصور أن يمهد له فيعد الإنسانية عن طريقه لبلوغ الكمال .